إذن فقول الحق: سبحانه وتعالى

﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ﴾ [التوبة: ٧]

وهذا استفهام للإنكار والتعجب من أن المشركين ليس لهم عهد، بل تمردوا وتعودوا دائما على نقض العهود ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ [التوبة: ٧]

أى أن الله عز وجل وهو يخبر المؤمنين بأن هؤلاء الكفار لاعهد لهم، لايطالب المؤمنين أن يواجهوا المشركين بالمثل، بل يأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يحافظوا على العهد مادام الكافرون يحافظون عليه، إلى أن يبدأ الكافرون فى نقض العهد وهنا يلزم سبحانه المؤمنين أن يقابلوا ذلك بنقض مماثل وهذا مايفسره قوله تعالى:

﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ [التوبة: ٧]

والمتقى هو الطائع لله فيما أمر وفيما نهى ويجعل بينه وبين صفات الجلال من الله وقاية، إذن فأساس التقوى هو ألا ينقض المؤمن عهداً سواء مع مؤمن أم مع كافر، وإنما الذى يبدأ بالنقض هو الكافر، وعلى المؤمن أن يحترم العهد والوعد.

ويقول الحق تبارك وتعالى من بعد ذلك:

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يقل كيف يكون للمشركين عهد، بل اكتفى بـ «كيف»، لأن غدرهم صار معروفا، وكانت «كيف» الأولى استفهاما عن أمر مضى.

والتساؤل هنا يـوضح لنا أنهم سيخونون العهـد دائما، كما فعلوا فى الماضى، فكأن الذى يخبر فى الماضى يخبر أيضـا عن المستقبل ويعلم مـايكـون منهم. ويتابع المولى سبحـانـه وتعالى قوله: ﴿ وإن يظهروا عليكم ﴾ [التوبة: ٨]

ومعنى «يظهروا»، أى يتمكنـوا منكم، وهم إن تمكنوا من المؤمنين لايـرقبون فيهم إلاً ولا ذمّـة، و«يـرقب» من الـرقيب الذى يـراقب الأشيـاء. إذن فهم لايـراقبـون بمعنى لا يراعون، أى أنهم لـو تمكنوا من المؤمنين لايراعون ذمة ولا عهدا ولا ميثـاقا، بل يستبيحون كل شىء. وهذا إخبار من الحق سبحانه وتعالى عما فى نفوس هؤلاء الكفار من حقد على المؤمنين.

ونـلاحظ أن كلمـة «يـرقبـون» غير «ينظـرون»، وغير «يبصرون»، وهى أيضـا غير «يلمحون» وغير «يرمقـون»، مع أنها كلها تؤدى معنى الرؤيـة بالعين، ولكن يرقب تعنى يتأمل ويتفحص باهتمام حتى لاتفوته حركة، لـذلك إذا قلنا: إن فلانا يراقب فلاناً، أى لاتفوته حركة مـن حركاته وهو ينظر لكل حركة تصدر منـه. أما كلمة «نظر» فتعنى رأى بجميع عينيه، وكلمـة «لمح» تعنى رأى بمؤخـر عينيه، و«رمق» أى رأى من أعلى. وقـوله سبحانه وتعالى «لايرقبوا فيكم إلاً ولا ذمّـة» يعنى لا يراعون فيكم عهداً، ولا يمنع الواحد منهم وازع من أن يفعل أى شىء مهما كـان قبيحا؛ والمثال: أن يـرفع الرجل القـوى يده ليضرب طفلاً صغيراً لا يتحمل ضربته، هنا يمسك أحـدهم بيده ويطلب منه أن يراعى أن الطفل صغير لا يتحمل الضرب، وأنه ابن فـلان قريبه، وأنهم جيران؛ فلا يـراعى هذا كله، وإنما ينهال على الطفل ضرباً.

وقـوله سبحـانه وتعـالى: «إلاً» هى فى الأصل اللمعان أى البريق، و«إلاً» أيضـاً هى الصوت العالى، واللمعـان والصوت العالى لافتان لوسـائل الإعلام الحسّية، وهى الأذن والعين، والإنسان إذا عاهد عهداً فهذا العهد يصبح أمـراً واضحاً أمامه يلفت عيونه كما يلفتها الشـىء اللامع، ويلفت أذنـه كما يلفتها الصـوت العالى، وسُمى العهـد والكلام «إلاً» لأنه معلوم بالعين والأذن.

هذا هو المعنى اللغوى، لكن المعنى الاصطلاحى لكلمة «إلاً» هو الغضب، بأن تشد

شيئا كأنك تغصبه على عدم الالتصاق بشيء آخر، ولذلك سُمِّى سلخ جلد الشاة غصباً لأن اللحم ملتصق بالجلد، وسُمى أخذ المال غصباً؛ لأن صاحب المال متمسك بماله تمسك الشاة الحية بجلدها. وإذا أُطْلِق الغصب فى الفقه لا ينصرف إلى المعنى اللغوى وهو اللمعان والصوت العالى، وللعلماء فى هذا المعنى أكثر من رؤية، وكل واحد منهم أخذ لقطة من الـ«إل» وأصله اللمعان، ألّ.. يؤلّ.. إلاًّ، بمعنى لمع.. يلمع.. لمعاً. والـ«إل» أيضاً هو الصوت العالى، وقال ابن عباس والضحاك رضى الله عنهما: إن «إلاّ» هى القرابة؛ لأن القرابة سبب للتراحم، فأنت يعز عليك أن تخون قريباً لك؛ لأن القرابة لا تحتاج إلى عهد، وقيل إن «إلاّ» هى العهد.

وقال سيدنا الحسن: إن «إلاّ» هى الجوار وما يوجبه من حقوقه. وقال قتادة: إن «إلاّ» هى الحلف والتحالف. وقال أبو عميرة: إن «إلاّ» هو اليمين أو القسم.

والمعانى كلها تلفتنا إلى وجود نوع من التراحم، بحيث لا تتملك الإنسان القسوة أو انفلات الانفعال، وليجعل الإنسان لنفسه من يقول له: «اهدأ إنه جارك أو من قوم بينهم وبين من تعاهدون صلة قرابة»؛ لأن الذى يجعل الإنسان لا يميل إلى الشر ولا يستشرى فيه ساعة يحفزه الأمر؛ هو مراعاة الملابسات كلها، وهكذا يتدخل الحوار، ولكن قد توجد قرابة أو عهد أو قسم أو جوار ليمنع البطش بقسوة، أى إن «إلاّ» هو الأمر الذى يمنع الرد بقسوة على شيء قد يكون وقع خطأ. والمعنى أيضاً هو عدم احترام لكل القيم؛ عدم احترام للقرابة أو الجوار أو العهد أو القسم، فإذا تمكن رجل قوى من طفل صغير لم يراع فيه أيا من هذه الأشياء.

ويريد الحق أن نعلم أن المشركين إذا تمكنوا من المؤمنين فهم لا يراعون فيهم قرابة ولا عهداً ولا حلفاً ولا جواراً ولا قسماً ولا أى شيء. إذن فكيف يكون للمشركين عهد؟ وهم إن تمكنوا من المؤمنين لا يراعون فيهم شيئا أبداً.

ثم يضيف الحق سبحانه وتعالى قوله:

﴿ وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨]

والذمة هى الوفاء بالأمانة التى ليس عليها إيصال ولا شهود، فإذا اقترض واحد

مبلغاً من شخص آخر وكتب إيصالاً عليه بذلك المبلغ، فهذا الإيصال هو الضامن للسداد، وكذلك إن كان هناك شهود فشهادتهم تضمن الحق لصاحبه. ولكن إن لم يكن هناك إيصال ولا شهود، يصبح الأمر موكولاً إلى ذمة المقترض؛ إن شاء هذا المدين اعترف بالقرض، وإن شاء أنكره، وهناك ذمة أخرى هي التي بينك وبين نفسك، والمثال على ذلك قد تعاهد نفسك بأن تعطى فلاناً كل شهر مبلغاً من المال، وهذا أمر ليس فيه عهد مكتوب أو شهود لكنه متروك لذمتك، إن شئت فعلته، وإن شئت لم تفعله. وما فى الذمة - إذن - هو شيء إنْ لم تفعله تُفضَح، مثال ذلك: أن تقرر بينك وبين نفسك أن تساعد أسرة ما، وهذا أمر خاضع لإرادتك، فلا عهد يجبرك على ذلك ولا قرابة ولا جوار، لا شيء إلا ذمتك، ولذلك فأنت تراعى الوفاء بما وعدت نفسك به لتحافظ على سمعتك ورؤية الغير لك. وكذلك أيضاً حين تأخذ ديناً بلا إيصال منك أو شهود عليك، ولكنك تحرص على أن ترده لأنه فى ذمتك.

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨ ﴾ [التوبة]

وهكذا نعرف أن «كيف» هنا تعجب من أن يكون للمشركين الآن أو فى المستقبل عهد لأنهم يحترفون نقض العهود ولو تمكنوا من المؤمنين فهم ينكلون بهم أبشع تنكيل دون مراعاة لأى اعتبار، وقد يقول قائل: إنهم معنا على أحسن مايكون؛ بشاشة وجه وحسن استقبال إلى آخره، فكيف إذا تمكنوا منا انقلبوا إلى وحوش لاترحم؟. ونقول: إن الله سبحانه وتعالى يعلم مايظهر ومايخفى، وقد علم مايدور فى خواطر المؤمنين فرد عليهم حتى لايترك هذه الأشياء معلقة داخل نفوسهم، ولذلك يريد سبحانه وتعالى على هذا الخاطر:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨]

أى أن الله عز وجل ينبه المؤمنين ويحضهم ألا يصدقوا الصورة التى يرونها أمامهم من المشركين؛ لأنها ليست الحقيقة، بل هو خداع ونفاق؛ فهم يقولون القول الحسن،

ويقابلونك بوجه بشوش وألفاظ ناعمة، لكن قلوبهم مليئة بالحقد عليكم أيها المسلمون بحيث إذا تمكنوا منكم تظهر مشاعرهم الحقيقية من البغض الشديد والعداوة، ولا يرقبون فيكم إلاً ولا ذمّة. فإذا قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة: ٨]

فعلى المؤمنين أن يصدقوا ما جاء من الحق، ويكتشفوا أن اللسان الحلو وحسن الاستقبال ليس إلا خداع، من هؤلاء الأعداء، وهو سبحانه بهذا الكشف إنما يعطينا مناعة بألاّ ننخدع بما نراه على وجوههم؛ فهذا مجرد أمر استقبالى، لا يمثل ماضياً أو حاضراً، وحين يبرم سبحانه وتعالى أمراً استقباليا فهو يخبر به عباده المؤمنين، ولذلك نجده سبحانه وتعالى يرد بنفس الأسلوب على هذه الخواطر والمثال: فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة: ٢٨]

والبلاغ هنا نهى عن دخول المشركين المسجد الحرام أو اقترابهم منه، ومن الطبعى أن تدور الخواطر هنا فى نفوس عدد من المؤمنين الذين يستفيدون من المشركين فى مواسم الحج، لأنهم أمة تعيش على اقتصاد الحج، حيث يبيعون السلع لهؤلاء القوم ليكسبوا قوت العام، فإذا ما تم منع المشركين من الحج أو الاقتراب من المسجد الحرام، فمن أين يأتى الرزق الذى يحصلون عليه من البيع لهم؟ ولابد أن يفكر المؤمنون: من أين سنأكل؟. نحن نحضر بضاعتنا وننتظر طوال الموسم حتى الحج؛ فإذا نقص عدد الحجاج فلمن نبيع؟.

فيرد الله سبحانه وتعالى على هذه الخواطر بقوله تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة: ٢٨]

أى لا تخافوا الفقر، لأن الله يعلم ما سوف يحدث، والله هو الغنى وعنده مفاتيح كل شىء وسوف يغنيكم من فضله ويفتح لكم باب الرزق مما يعوضكم وزيادة. وهكذا يرد الله سبحانه وتعالى على الخواطر التى تدور فى نفس المؤمن ساعة نزول القرآن؛ حتى

تطمئن قلوب ونفوس المؤمنين فيقول عز وجل:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨]

وفي هـذا القـول رد على الخواطر التي دارت في نفـوس المؤمنين؛ وهم يـرون المشركين يسـتقبلونهم بألفاظ نـاعمة ووجوه تملؤها البشاشـة، فأوضح لهم الحق سبحانه وتعالى: لاتنخدعوا فيما في القلوب عكس ما هو على الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨]

يبين أنهم بعيدون عن المنهج ، فالفسق هو الخروج عن الطـاعة، وهل الكافر والمنافق له طاعة؟.

نقـول: إنك إن نظــرت لهؤلاء تجدهم خــارجين حتى عـن المنهج الـذى اتخذوه لأنفسهم؛ فهم لايلتـزمون بمنهج البـاطل الـذى يعتنقونـه، إذن فهم فاسقـون حتى فى المنهج الذى ينتسبـون إليه، فإذا كـانوا كذلك مع منهج البـاطل، فكيف بهم مع منهج الحق؟.

وقولـه تعالى: ﴿وأكثرهم فـاسقون﴾ يوضح بأنـه قد تكون هنـاك قلة ملتزمـة، وهذا احتيـاط قرآنى جميل، كما أنها ردت على السـؤال الـذى قد يتبـادر إلى الذهن أن هـؤلاء كافرون ـ وليس بعد الكفر ذنب ـ فكيف يقال إنَّهم فاسقون أى عاصون أو خارجون عن الطاعة وهم غير مؤمنين أصلا؟.

نقول: إنهم خارجـون حتى عن مناهج الكفر التى اختاروهـا لأنفسهم، ولذلك يبين الله سبحانه وتعالى وضعهم حين يقول:

﴿ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وهكذا يرينـا الله عز وجل انقلاب المعايير عنـدهم، فما الشراء؟. الشراء هو: الحصول

على سلعـة مقابل ثمن، فإذا قلت: اشتريت سـاعة مثـلاً، تكون أنت المشترى مـادمت تدفع الثمن، والذى أخذ الثمن هو البائع، وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [التوبة: ٩]

وكـان المفروض ـ إذن ـ أن يكـونوا قـد دفعوا الثمن، لأن المشترى هـو الذى يـدفع الثمن، ولكن هنا عُكست القضيـة؛ فجعل الحق سبحانه وتعالى الثمن هـو مايشترونه، مع أن الثمن هو الذى يدفع، فتكون القضية مخالفة لواقع البيع والشراء، والذى يجب أن نلاحظـه أيضاً هـو أن الثمن يساوى السلعـة. فأنت تأخـذ السلعة وتعطى للبـائع ثمناً يساويها، لأن ثمن كل شيء يجب أن يكون مناسباً له، فإذا اشتريت شيئا بسيطاً دفعت له ثمناً بسيطاً، وإذا اشتريت شيئا ثميناً دفعت فيه ثمناً غالياً.

هذا كله ملحوظ حتى فى الأعمال، وقد تكون ممن يرغبون فى مشاكسة الغير، وقد تجد من يشاكس غيره؛ يطلب من أحـد أتباعه أن يسب فلانـاً ويعطيه عشرة جنيهات، فإذا أراد أن يجعل التـابع يضرب خصمـه، يقـول لـه: اضرب وأعطيك خمسين، وإن أراد أن يقتل التابع خصمه فهـو يعطيه الألوف من الجنيهات، وغـالبا مايقول هـؤلاء الذين بلا إيمان: كل ذمة قابلة للانصهار بـالذهب، لكن المختلف قيمة هو الكمية التى تصهر أى ذمة، فهنـاك من تنصهر ذمته بـريال، وآخـر تنصهر ذمته بعشرين أو ثـلاثين، وهناك من تنصهر ذمته بملايين.

ويلفتنا الحق سبحـانه وتعالى إلى أن هـؤلاء الكفار قـد حوّلوا الإيمان إلى سلعـة تباع وتشترى، فهم قد بـاعوا إيمانهم، وبدلا من أن يتقـاضوا عنه مـايساوى الإيمان والإيمان أغلى من كنـوز الـدنيـا كلها؛ بـاعـوا إيمانهم بثمن قليل، أى أنهم حتى لم يقـدروا قيمـة الإيمان فباعوه رخيصاً. كيف باعوا الإيمان بثمن رخيص؟.

نقول مثـلاً: إن الذى يـرتشى يفعل ذلك ويريـد أن يعوجّ ميـزان الحق، والذى يغير ميـزان الحق يشكك الناس فى العـدالة، وإذا شك النـاس فى العدالـة؛ فقدوا سنـدهم الأمنى؛لأن كل مظلـوم أمله أن يرفع الأمـر للقضاء فينصفـه، أو أن يرفع أمـره للمسئول فيعطيه حقه، فإذا أحس الناس بأن الحق قد ضـاع نتيجة أنه أصبح هناك ثمن للإيمان.

وإن دفع اختلت الموازين، فى هذه الحالة يفسد المجتمع كله، فكأنهم باعوا فساد المجتمع كله بثمن قليل جدا.

كما أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الحساب يوم القيامة؛ وكيف أن المؤمنين سيخلدون فى الجنة وينعمون بما لاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر، وسيدخل هؤلاء الكافرون النار وبذلك يكونون قد باعوا إيمانهم مقابل ثمن رخيص مهما كان المال الذى سيحصلون عليه ؛ لأن مال الدنيا كلها لايساوى يوماً فى الجنة؛ لأن الدنيا موقوتة بزمن، ومتاعها محدود وقليل، فكأنهم باعوا الخلود فى النعيم بمتعة وقتية قد لاتستمر إلا أياماً أو سنوات. وحينئذ يعرف الكافرون أن الثمن الذى تقاضوه قليل جدا بالنسبة لما خسروه. وليتهم جعلوا الإيمان ثمناً يدفعونه للحصول على متاع قليل فى الدنيا، ولكنهم زادوا على ذلك أنهم صدوا عن سبيل الله.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ [التوبة : ٩]

والصد يحدث حين تكون هناك دعوة معروضة بأدلتها فتمنع الناس من أن يستمعوا إليها، لأنك تعرف أنهم لوسمعوها لاعتنقوها واقتنعوا بها، ولذلك نجد الكفار مثلاًحين نزل القرآن والعرب أمة بلاغة وأمة بيان؛ عرفوا أنه لو سمع الناس القرآن لأحسوا بإعجازه وبلاغته وحلاوته ولآمنوا به، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى على ألسنتهم فى القرآن: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

لأن الكفار يعرفون أن الناس لو استمعوا للقرآن لآمنوا به، ولذلك فهم ينهونهم عن السماع، وإن قرأ أحد القرآن يأمرون بعضهم البعض باللغو فيه حتى لايفهم شيئا، وهذه شهادة من الكفار بأن الآذان لو استقبلت القرآن لآمنت، واللغو هو نوع من الصد عن سبيل الله، وكان هناك نوع آخر من الصد عن سبيل الله أنهم كانوا يمنعون الناس من الاستماع إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم يعرفون أن حلاوة الدعوة ستجعل من يستمع إلى دعوة الرسول يؤمن بها. ولذلك فهم يصدون الناس عن

كلام الله تعالى وعن الاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا يقولون لأهل الحجيج: لاتصدقوا الرجل الذى يقول إنه نبى، وهذه شهادة منهم أن الآذان لو استقبلت القرآن لسحبت أفئدتهم إلى الإيمان، وهذه شهادة ضدهم وليست لهم؛ لأنهم واثقون أن سماع الحجيج لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ستبعدهم عن الكفر؛ لذلك كانوا يخافون من أن يتأثر الناس بهذا الدين الذى هو دين الحق فيؤمنوا به وهذا ماجعلهم يصدونهم عنه.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩]

وساء أى قبح، وليس هو قبح الآن فقط، ولكنه قبح حاليا وعظمت العقوبة عليه مستقبلاً.

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩]

يرينا دقة القرآن الكريم فى أن السيىء منهم ليس عملاً واحداً ولكنه أعمال متعددة؛ قول وفعل، أى هم يصدون الناس بالكلام ويمنعونهم باستخدام القوة فى بعض الأحيان. وباستخدام الحق لكلمة «يعملون»؛ يلفتنا إلى أن أعمالهم ليست قولاً وليست فعلاً فقط، فهناك القول وهناك الفعل وكلاهما عمل؛ القول عمل اللسان، والفعل عمل الجوارح. فلو قال الحق: ساء ما كانوا يفعلون، لقلنا فعلوا ولم يقولوا. ولو قال: ساء ما كانوا يقولون، لقلنا: قالوا ولم يفعلوا. وسبحانه أوضح لنا أن القول والفعل كلاهما عمل، وقال سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

ليبين لنا أن هناك فرقاً بين القول والفعل؛ القول أداته اللسان، والفعل أداته بقية الجوارح، والمعنى فى قوله تعالى: «إنهم ساء ما كانوا يعملون» أى ساء قولهم وفعلهم.

ويتابع المولى سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝١٠ ﴾

ومن لايرقب إلاَّ ولا ذمة فى غيره إنما يظلمه، فإذا كان بينى وبينك قرابة، أو عهد، أو إيمان، فإن لم تراع ذلك تكون قد اعتديت على حقوقى عندك، وليتك قد اقتصرت فى الاعتداء على حقوق الغير، لكنك ـ أيضا ـ اعتديت على نفسك، لأنك أعطيتها متاعاً قليلاً فى الدنيا، وتصلى فى الآخرة ناراً، إذن فقد ظلمت نفسك. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٥]

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٨]

وأليس الذى فعل فاحشة، يظلم نفسه؟ بلى، ظلمها فى الآخرة بعد أن أعطاها شهوة فى الدنيا، أى أنه أخذ متعة عاجلة بعذاب آجل. لكن الذى يظلم نفسه ظلما شديدا وبيّناً هو الذى يرتكب إثما دون أن يأخذ متعة فى الدنيا، فلا هو أخذ متعة دنيا ولا أخذ متعة آخرة، مثل الذى يتطوع لشهادة الزور، هو يأخذ عذاباً فى الآخرة ولم يأخذ متعة فى الدنيا.

وقد يقول قائل: إن هذه الآية مكررة لأن الله تعالى قال من قبل :

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة : ٨]

ونقول: إن الموضوع يختلف، ففى الآية الثامنة من سورة التوبة يبين الحق أنهم إن تمكنوا من المؤمنين فلن يراعوا قرابة ولا جواراً ولا حلفاً، وإن أظهروا عكس ذلك. أما فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها فهم يظلمون أنفسهم ويبيعون إيمانهم بثمن قليل، وهناك فرق بين ظلم الغير وظلم النفس.

وهم فى صدهم عن سبيل الله تعالى وعدوانهم على المؤمنين، لم يحصلوا على فائدة دنيوية، بل حاربوا الإيمان وحاربوا الدين فأخذوا الإثم ولم يستفيدوا شيئا، فكأنهم لا يرقبون إلاّ ولا ذمة حتى مع أنفسهم. ولذلك وصفهم الحق سبحانه وتعالى بأنهم هم المعتدون، لأنهم دون أن يُعتدى عليهم تطوعوا بالعدوان على دين الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ثم قاموا بالعدوان على أنفسهم. ومن بعد ذلك تأتى رحمة الله لترينا كيف أن الله تعالى رحيم بعباده وخلقه، فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأنهم مهما فعلوا فإنهم إن تابوا يقبل الله توبتهم، لذلك يقول الحق جل جلاله:

﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

وهذه الآية الكريمة تؤكد لنا أن الإسلام يَجُبُّ ماقبله، وأن الباب مفتوح دائما لتوبة المشركين والكافرين مهما كانت ذنوبهم، وهكذا تكون رحمة الله تعالى. ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: «فإن تابوا» ولم يقل إذا تابوا، لأنه لو قال: إذا تابوا تكون توبتهم مؤكدة، ولكن قوله: «فإن تابوا» فيها شك، لأن مافعلوه ضد الإيمان كثير، والذى نأمله فيهم قليل، ولكن التوبة تفترض أن يباشر التائب بعدها مهمته الإيمانية. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ [التوبة: ١١]

إذن فالمهمة الإيمانية بعد التوبة إنما تكون بشهادة أن «لاإله إلاالله محمد رسول الله»، وبطبيعة الحال لابد من مباشرة الصلاة لأنها تجمع كل أركان الإسلام، وهى عمل يومى، وليست عملاً مطلوباً من الإنسان مرة واحدة كالحج، وليست كالصوم، فالصوم مدته شهر واحد من السنة. إذن لكى تتأكد التوبة فلابد أن يؤدى التائب الصلاة فى وقتها كل يوم فهى العمل اليومى الذى لايؤجل ولايتأخر عن وقته، والصلاة قرنت

غالباً بالزكاة فى آيات القرآن الكريم؛ لأن الزكاة تضحية بالمال، والمال ناتج العمل، والعمل ناتج الوقت، والصلاة تضحية بالوقت، فكأن الصلاة ـ كما قلنا ـ فيها زكاة.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [التوبة]

إنه لابد أن نلاحظ فى التفصيل هنا المراحل الإيمانية التى بينها الله عز وجل لنا؛ المرحلة الأولى وهى تحمل الاضطهاد والصبر، والمرحلة الثانية أنه لامهادنة بين الإيمان والكفر، وهذه حسمت محاولة الكفار تمييع قضية الإيمان بأن نعبد إلهكم فترة وتعبدون إلهنا فترة، وكانت هذه عملية مرفوضة تماماً الآن وفى المستقبل وحتى قيام الساعة. ثم جاءت مرحلة المعاهدات ثم نقض العهود ثم مهلة الأشهر الأربعة الحرم التى أعطيت للكافرين. وكل هذه مسائل مقننة، ولم تكن الأمة العربية تعرف التقنينات.

إذن فكل هذه التقنينات جاءت من السما، والتقنينات فى الأمم تأخذ أدوارا طويلة، ولايوجد قانون بشرى يولد سليماً وكاملا، بل كل قانون يوضع ثم تظهر له عيوب فى التطبيق، فيعدّل ويطور ويفسر ويحتاج إلى أساطين القانون الذين يقضون عمرهم كله فى التعديلات والتفصيلات، فكيف ترتب هذه الأمة العربية الأمية التى لم يكن لها حظ من علم ولاثقافة كل هذه التقنينات؟.

نقول: إنها لم ترتب، وإنما رتب لها ربها الذى أحاط بكل شىء علماً، فكل هذه المراحل التى مر بها الإيمان نزلت فيها تقنينات من السماء تبين للمؤمنين مايجب أن يفعلوه.

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١]

ونحن عادة نعرف أخوة النسب، فهذا أخى من أبى وأمى، أو هذا أخى من الأب فقط ، أو هذا من الأم فقط، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٥٨]

هذه أخوة النسب، ونحن نعلم أن مادة الأخوة تأتى مرة لتعبر عن أخوة النسب،

وتأتى مرة كلمة «إخوان» لتعبر عن الأخوة فى المذهب والعقيدة، وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يرفع الإيمان إلى مرتبة النسب، فقال عزوجل:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠]

ليدلنا على أنهم مادامـوا قد دخلـوا معنا فى حظيرة الإيمان فلهم علينا حق أخوة النسب فيما يوجد من تواد وتراحم، وترابط وحماية بعضهم البعض دائما، وحب ووفاق إلى آخر مانعرفه عن حقوق الأخوة بالنسب.

ولكن نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١]

ولم يقل إخوانكم، لماذا؟.

نقول: ليس من المعقول أن يخرجوا من كل ماكانوا فيه من آثام بالتوبة، ثم يصبحوا فى نفس التو واللحظة إخوة، لكن ذلك يحدث عندما يتعمق إيمانهم، ويثبت صدق توبتهم حينئذ يصبحون إخوة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ١١]

كيف يكون التفصيل لمن يعلم؟. ومادام يعلم فلماذا التفصيل؟.

ونقول: إن المعنى هنا أن الله سبحانه وتعالى يفصل الآيات لمن يريدون أن يعلموا العلم الحقيقى الذى يأتى من الله، لأن هذا العلم له أثر كبير على مستقبل الإيمان، ولذلك فغير المسلمين الذين يهتمون بدراسة الدين الإسلامى دراسة جادة للبحث عن العلم الحقيقى ينتهون إلى إعلان إسلامهم، لأنهم مادامـوا أهل علم وأهل مواهب وأهل طموح فى فنونهم، ومادامت شهوة العلم قد غلبتهم، وأرادوا أن يدرسـوا منهج الإسلام بموضوعية، لذلك تجدهم يعلنون الإسلام لأنهم ينظرون النظرة الحقيقية للدين الذى يدرسونه، وهم يأخذون الإسلام من منبعه الإيمانى وهو القرآن الكريم والسنّة النبوية، ولا يأخذون الإسلام من المنسوبين للإسلام، أى من المسلمين ؛ لأن المسلمين قد يكون فيهم عاص، وقد يكون فيهم سارق، وقد يكون فيهم مُرْتَشٍ، وقد يكون فيهم كذاب، وقد يكون فيهم منافق، ولو أخذوا الإسلام عن المسلمين لقالوا: ماهذا؟ معصية وسرقة وكذب ورشوة ونفاق؟!

إننى أقـول دائماً لمن لم يدرس الإسلام مـن أهل البلاد الأخـرى: لاتنظر إلى المنسـوبين لـلإسـلام، ولكن انظـر إلى الإسـلام فى جـوهـره ومنهجـه: (القرآن والسنة)؛ هل جرم الرشـوة والسرقة والكـذب والنفاق وجعل لها عقوبة أو لا؟ نعم جرّمها.

إذن فهـذه الأفعـال كلهـا التى وجـدتها فى عـدد من المسلمين واستنكرتها ليست من الإسـلام فى شىء، ولكنك إذا ذهبت إلى الإسلام لتعـرفه من منـابعه العلمية وهى معزولة عن المنسوبين إليه لانتهيت إلى الإيمان.

ولذلك لو عرف المسلمون الذين ينحـرفون عن المنهج، ماذا يفعلون بالإسلام وكيف يسيئـون إليـه؛ لعلمـوا أنهم يفعلـون شيئـا خطيراً؛ لأن الإسـلام منهج وسلـوك، وليس منهجـا نظـريـا فحسب، بل هـو منهج عملى يطبق فى الحيـاة، ولذلك فإذا كـان القرآن الكريم يمثل قواعـد المنهج، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل المنهج العملى التطبيقى للإسلام. ويقول الحق سبحانه:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١]

والمسلم حين يطبق منهج الإسـلام يلفت نظـر غير المسلم إلى هـذا الـدين ويحببه فيـه [(١)]، وحين يفعل مـالا يرضـاه الإسـلام يُنَفِّرُ غير المسلم من الـدين، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

لأن فعلك حين يختلف مع الـدين الذى تدعـو إليه وتـؤمن به، فهـو يتحول

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «والـذى نفس محمد بيده إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلت طيباً، ووضعت طيبا، ووقعت فلم تكسر ولم تفسد» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٩)

إلى حجة ضد الدين، فيقول غير المسلم: لقد رأيت المسلم يغش، ورأيته يسرق، ورأيت يده تمتد إلى الحرمات، إذن فكل منحرف عن الدين إنما يحمل فأساً يهدم بها الدين، ويكون عليه وزر عمله، ووزر من اتخذوه قدوة لهم[1].

ولقد قلنا : إننا حين ننظر إلى التمثيل الدبلوماسى فى العالم الإسلامى، نجد اثنتين وسبعين دولة إسلامية لها سفارات فى معظم دول العالم، وأتساءل: كم من أفراد هذه السفارات يتمسك بالمظهر الإسلامى؟. أقل القليل. وكم من الجاليات الإسلامية فى الدول الأجنبية يتمسكون بتعاليم الدين؟. أقل القليل. ولو أنهم تمسكوا جميعا بتعاليم الإسلام لعرفت دول العالم أن لهذا الدين قوة ومناعة تحميه. وأن هذه المناعة هى التى منعت الحضارة المادية المنحرفة من أن تؤثر فى هؤلاء، ولكان لفتة قوية لشعوب العالم لكى تدرس هذا الدين، ولكنك تجدهم يذوبون ويتهافتون على الحضارة المادية للدول التى يقيمون فيها، مما يجعل شعوب هذه الدول تقول: لو كان دينهم قويا لتمسكوا به، ولم يتهافتوا على حضارتنا.

وإذا درسنا تاريخ الإسلام نجد أنه لم ينتشر بالقتال أو بالسيف؛ لكنه انتشر بالأسوة الحسنة، وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)﴾ [التوبة]

أى نبينها لقوم يبحثون عن العلم الحقيقى، الذى بينه الله عز وجل فى منهجه، ولذلك نجد مثلا أنه إذا وصلت أمة من الأمم إلى كشف جديد فأهل العلم فى الإسلام يعرفون أنه ليس كشفا جديداً؛ لأن الإسلام ذكره منذ وقت طويل.

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لاينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٧٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٩٧) الترمذى (٢٦٧٤) وابن ماجه (٢٠٦). قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

فمثلاً فى القانون فى ألمانيا وصلوا إلى مادة فى القانون سموها: «سوء استغلال الحق» فأنت لك حقوق ، ولكنك قد تسيء استغلالها. وبدأت الدولة فى ألمانيا تتجه نحو تشريع قوانين تهدف لمنع إساءة استغلال الحقوق ووضع شروح لهذه القوانين وتطبيقها إلى آخره ، وذهب محام مسلم من بنى سويف ليحصل على الدكتوراه من ألمانيا ، فاطلع على هذه المسألة ، وقد كان يحضر محاضرة يلقيها صاحب قانون نظرية «سوء استغلال الحق»، فقام المحامى المسلم وقال له: أنت تقول إنَّك واضع هذه النظرية؟. فقال المحاضر الألمانى: نعم. فقال المحامى: لقد جاءت هذه النظرية منذ أربعة عشر قرناً فى منهج الإسلام. وارتبك المحاضر الألمانى ارتباكا شديداً ، وجاء بالمستشرقين؛ ليناقشوا هذا المحامى المسلم، وجاءوا بكتب السيرة النبوية، وأخرج المحامى للمستشرقين قصة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول: إن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان جالسا فجاءه صحابى يشكو من أن أحد الصحابة له نخلة فى بيته، والبيت مملوك للصحابى الشاكى، والنخلة مملوكة لصحابى آخر ،وقد تعوَّد أن يأتى الصحابى صاحب النخلة إليها كثيراً ليشذبها ويلقحها ويطمئن عليها ،وكأنه قد جعلها «مسمار جحا» كما يقول المثل الشعبى، فتعرضت عورة أسرة الصحابى صاحب البيت إلى الحرج، فذهب يشكو الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحضر الرسول صاحب النخلة وأوضح له بما معناه : «إما أن تهب النخلة لصاحب البيت ،وإما أن تبيعها له بالمال ، أو أن تقطعها[1]» .

لقد أوضح له الرسول صلى الله عليه وسلم: أن النخلة حقك ولكنك

(١) عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال: إن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: إن لفلان فى حائطى عذقا وإنه قد آذانى وشق على مكان عذقه فأرسل إليه النبى ﷺ فقال: بعنى عذقك الذى فى حائط فلان. قال: لا، قال: فهبه لى، قال: لا. قال: فبعنيه بعذق فى الجنة ، قال: لا. فقال النبى ﷺ: « مارأيت الذى هو أبخل منك إلا الذى يبخل بالسلام».
أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٣٨) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٠) والبزار (٢٠٠٠) فى كشف الأستار. قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣/ ١٢٧): «فيه عبدالله بن محمد بن عقيل وفيه كلام وقد وثق».

أسأت استعمال الحق بكثرة ذهابك إلى مكانها بسبب وبغير سبب، مما عرَّض عورة صاحب البيت للمتاعب[1]. وكان هذا الفعل هو المثل الحى لسوء استغلال الحق. وكان من أمانة العلم أن يعدل أستاذ القانون الألمانى فى محاضرته ويقول: لقد ظننت أننى قد جئت بشىء جديد، ولكن الإسلام سبقنى إليه منذ أربعة عشر قرنا. وفعلا تم التعديل. واعترف القانون الألمانى بأن الإسلام قد سبقه فى نظرية «سوء استغلال الحق» منذ ألف وأربعمائة سنة.

ولذلك تجد أن صفة الأمية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وفى أمته[2]، كانت شهادة تفوق ؛ لأنها لم تأخذ علمها بالقراءة عن حضارات الأمم السابقة، وإنما أخذته عن الله؛ لأن أقصى مايصل إليه غير الأميين فى علمهم أن يجيء إليهم العلم من بعضهم البعض، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم جاء لها العلم من الله ،وسادت الدنيا أكثر من ألف عام.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

ونكثوا الأيمان : أى لم ينفذوا بنود العهود، والله سبحانه وتعالى يعطينا هنا حيثية قتال الكفار بعد كل المراحل التى حاربوا فيها الإيمان، فهم قد نقضوا

(١) وقد أرشدنا رسول الله ﷺ لأدب عدم الاطلاع على عورات المسلمين، فعن سهل بن سعد قال: اطلع رجل من جحر فى حجر النبى ﷺ ومع النبى ﷺ مدرى يحك به رأسه فقال: «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر». أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٤١) ومسلم (٢١٥٦)

(٢) قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل﴾ [الأعراف: ١٥٧]. قال القرطبى فى تفسيره: (الأمى): منسوب إلى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها. لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها . قاله ابن العربى. وقال ابن عباس: كان نبيكم ﷺ أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب. قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨]